المشترك في الدرس اللساني الحديث

أ. صابر الحباشة [1]

قسم اللغة والآداب العربية بالجامعة- العربية المفتوحة- البحرين

١ـ في إشكالية المبحث

تعد ظاهرة المشترك، من الظواهر التي تستقطب اهتمام كثير من الباحثين والنظّار، فهي تمتدّ على كثير من العلوم اللغوية والشرعية والأدبية. وليس من الممكن فصل القول فيها إلا وفق منظور علميّ محدد يبيّن ما تقوم عليه من تعدد في التأويل وتنوع في المناويل. وقد أفرد الباحثون المعاصرون، من منطلق لسانيّ، للمشترك مؤلفات تنوعت بين البلاغة والمعجم واللغة ... ولم نقف على دراسة باللسان العربيّ تلمّ شتات هذه الظاهرة، أو تفحصها فحصا علميا دقيقا، على النحو الذي نجده في مصنفات غربية كثيرة، في هذا النطاق، ممّا سنشير إليه لاحقا في غضون هذا العمل. لذلك رأينا أنّ إفراد الناحية اللسانية لظاهرة المشترك بدراسة وافية، أمرٌ يستحقّ المغامرة ودرب قمن بأن يُسار عليه.

ومما يزيد الناظر في مبحث المشترك إغراء بالبحث ما يُلاحظ من تناقض بين المراجع في نظرة أصحابها إلى هذا ا لمبحث، فمنهم المنكر ومنهم المثبت، وقد عجّت بهذا الخلاف كتب اللغة والدراسات الحديثة التي تناولت هذا الجانب. أمّا ما يلفت الانتباه أكثر من ذلك، فهو أصالة المبحث وتجدد النظر إليه بين العصور وبين الألسن، فلا نكاد نجد لسانا حيّا لم يتطرّق أهله إلى مسألة المشترك. غير أنّ المقاربة تتراوح بين التوسيع والتضييق، فمنهم من يتناول المشترك بوصفه ظاهرة معجمية خالصة لا تمسّ مستويات التحليل اللسانيّ الأخرى : تركيبا وصرفا واشتقاقا ودلالةً وتداوُلا، ومنهم من ينهض رأيه على تناول المشترك من زاوية نظر معرفية ذهنية محضة، تجرّد المسألة تجريدا وتنأى بها عن التناول التجريبيّ.

ونجد في بعض المصنّفات المعجمية إثارة لمسألة قلق تصنيف ظاهرة المشترك ضمن حيّز موضوعيّ يصلح لتعيين حدوده بدقة، حتى يتيسر تناول خصائصه وسماته بشكل يقترب من العلمية اقترابا.

فجاكلين بيكوش[1] مثلا، تلاحظ أنّ اختلاف عدد مداخل المعاجم يؤثر في دراسة المفردات عموما، ما قام منها على الترادف أو الاشتراك أو غير ذلك.

وتعتبر قوائم المفردات في المعاجم الصناعية متفاوتة العدد بشكل يعسر معه استخلاص نتائج علمية، فتعقّد الظاهرة اللغوية وكثافة المادّة موضوع الدراسة وتنوعها، كل ذلك يحول دون استيعاب المسألة بشكل وافٍ شافٍ.

وترى هذه الباحثة أنّ "المشترك يفترض آلية دلالية في منتهى القدرة على جعل علامةٍ واحدةٍ قادرةً على أن تمسحَ جزءا هامّا من التجربة الإ نسانية"[2]. ويبدو أنّ هذا الإقرار يعلّل لنا أمر افتتاح جاكلين بيكوش كتابها عن "البنى الدلالية للمعجم الفرنسيّ" بقولة اقتبستها عن جون

وكلود ديبوا، يقولان فيها : "إنّ التمييز الذي نعقده بين الكلمات المتجانسة والكلمات المشتركة، لا قيمة له إلا في نطاق تفسير ذي طابع زماني تاريخيّ (diachronique). أمّا على مستوى عمل اللسان، فإنّ ذلك التمييز يكون غير ذي دلالة "[3].

فبالربط بين الشاهدين الأخيرين نلاحظ وعيا باستقلالية ما لنظام المشترك في اللغة، وهو حدس عملت النظريات الحديثة على تدقيقه وتأصيله.

وقد ورد في كلام بيكوش لفظٌ جرى بعدها في دراسات كلايبار وأضرابه مجرى المصطلح ألا وهو لفظ "الوجوه" (les facettes) وإن كان سياق حديثها عنه سياق الحديث عن الترادف، فإنّ انسحابه على المشترك في الدراسات الحديثة أمرٌ لا نرى داعيا للبرهنة عليه. فلعلّ "نظرية الوجوه" قد استنبطت من استعمالاتٍ للفظ الوجوه مجازيةٍ، ثم وقع إقرارها باعتبارها اصطلاحا مخصوصاً.

ولعلّ زمن صدور كتاب بيكوش السالف الذكر (منتصف الثمانينات من القرن العشرين) يعلّل طبيعة المقاربة وآليات المنهج المتبع في الدراسة؛ فقد ركّزت الباحثة على الناحية النفسية والسيميولوجية، وهي زوايا نظر كانت محلّ إعمال في تلك الحقبة. وقد استعملت الباحثة بعض المصطلحات مثل وحدة الاشتراك الدنيا : بوليسم (polysème) وهي -كما لا يخفى- مَقِيسةٌ على أخواتٍ لها مثل المورفيم والسيم والمونيم والستيلام... وهي تعود إلى الإرث البنيويّ القائم على التحليل التجزيئيّ (analyse componentielle). ولا غرابة في أنّ الدراسات الأحدث لا تعوّل عليها كثيرا، لأنّها أحدثت معها قطيعةً معرفيةً، نظرا إلى تدخّل شبكات تحليل جديدة لا تكتفي بالدراسة المجهرية للظاهرة اللسانية معزولةً عن سياقها الخطابيّ والتفاعليّ والتداوليّ والعرفانيّ، بل تسعى إلى النظر في طبيعة الأنظمة المتحايثة التي تسيّر الظاهرة وتتحكّم فيها بدرجات مختلفة ومتمايزة.

كما وقع تدقيق المقاربة النفسية الآلية القائمة على ثنائية المثير والاستجابة، وهي التي تحكّمت في الأدبيات النفسية ذات المنزع السلوكيّ والجشطلتيّ؛ فراجعت تلك الآلية الصمّاء وليّنتها باعتماد مقاربة لا تنطلق من النتائج قبل إجراء التجارب، بل جعلت هذه الأخيرة هي التي توصلنا إلى النتائج دون التخلّي عن المنهج الاستقرائيّ والمراوجة بينه وبين المنهج الاستنباطيّ.

ولعلّ ما يراه غوستاف غيّوم "نجاحا" لسانيّا لا يعدو أن يكون سوى تحقيق توازٍ كافٍ بين المستوى النفسيّ النظاميّ والمستوى النفسيّ السيميولوجيّ، ألم يقلْ اللسانيّ الفرنسيُّ إنّ "علم النفس السيميولوجيّ ينحو نحو أن يكون نسخةً ناجحة من علم النفس النظاميّ"[4]؟

ويقترح التحليل النفسيّ الميكانيكيّ عددا من الأدوات لفهم الظاهرة اللسانية ومقاربتها . من ذلك مفهوم الحركية (cinétisme): حركية الأفكار وفق المقولات، كمقولة الشخص ومقولة الزمن، حيث يوجد مسار دلاليّ يمكن أن نثبت عليه كلَّ نقطةٍ في ذلك المسار، وكلّ عملية "تثبيت" (saisie) تولّدُ "أثرا معنويّا".

٢- حدّ المشترك:

٣- المشترك والجناس

قبل أن نتطرّق إلى مسألة الجناس والمشترك، نودّ التمييز بين الالتباس والجناس . ويجب التفريق جيّدا بين الالتباس والتوسّع الدلاليّ، فقولنا **ركبت وسيلة نقل**، لا يمكن أن تُحمل فيه عبارة **وسيلة نقل** على الالتباس بدعوى أنّها تنطبق على الشاحنة والدراجة وغيرهما ممّا نُطلِق عليه في العادة عبارة **وسيلة نقل**، فهذا التعبير يقوم على توسّع في الدلالة لا على غموض أو التباس. تماما كما هو الحال مع الفعل **أحبّ** إذ يمكن استعماله مع معمول بشريّ مثلما نستعمله مع جماد، فأنت تقول : **أحبّ أبي** وتقول أيضا: **أحبّ مُربَّى السفرجل**، دون أن تشعر بالتباس في معنى الفعل **أحبّ**. ويبدو أنّه توجد دلالة عامّة مشتركة في كلّ استعمالات العبارة ذاتها : فقط تكون الدلالة واسعةً جدّا أو مجرَّدة. وكذلك نقول عندما يُصبح التجريدُ عدَمَ تحديدٍ، وهو ما يسميّه الفلاسفة ا لإنكليز غموضا (vagueness).

أمّا المشترك فيقوم على انتقال قوانين عامّة نسبيا من دلالة إلى أخرى، بما يسمح إذن بتوقُّع التنوُّع، من ذلك أنّ لفظة (violon) في اللسان الفرنسيّ تدلّ مرّة على الكمان آلةً موسيقيّةً وتدلّ مرّة أخرى على عازف الكمان. ولكن هل نعتبر كلمة **المكتب** من الجناس أم من المجاز المرسل؛ فهي تدلّ في الوقت ذاته على الأثاث وعلى الإدارة؟

يبدو أنّ ثنائية الجناس [homonymie] والمشترك[polysémie] ثنائية تلازم مباحث علم الدلالة بشكل مطّرد، كيف لا وهي ثنائية تضع تحدّيا هامّا على علماء الدلالة إذ يتساءلون : ما العمل أمام التشابه بين الظاهرتين؟ وكيف نفرّق بينهما ؟ وماهي ضروب التمييز ومعايير التفريق بين كليهما؟ وهل ثمة تراتبية في علم الدلالة، بحيث يمكننا اتّباعها أو تعديلها ، فنخلّص الاستعمالات من الوقوع في شراك إحدى هاتين الظاهرتين، لا سيما وقد اعترف الباحثون بأنّ الحدود بينهما غير دقيقة[12]؟

ورغم ما ذكر آنفا، فإنّ العلاقة بين الجناس والمشترك هي علاقة تكامل : فالكلمة التي يشتبه علينا أمرها فإن لم تكن في خانة المشترك فهي في خانة الجناس والعكس بالعكس . وتوفر لنا المعاجم الأوروبية (نحو معجم روبير الفرنسي، على سبيل المثال) طريقة في تعيين ما إذا كانت الكلمة من الجناس أو من المشترك : إذ يوضع مدخلان منفصلان للكلمة التي تقوم العلاقة بين معنييها على الجناس، نحو كلمة (avocat) التي تدلّ:

١- على المحامي، وأصلها لاتينيّ.

٢- على ثمرة الأفوكاتو، وأصلها إسبانيّ.

فبهذا تكون كلمة (avocat) من الجناس، فلا وجه للربط بين معنييها المختلفين . أمّا كلمة (exécuter) فتدلّ على معنيين مختلفين:

١- نفّذ حكم الإعدام على متهم.

٢- عزف قطعة موسيقية.

وشتان بين المعنيين، ولكن لا يمكن الحديث عن اختلاف في الأصل المعجميّ فالفعل هو نفسه . فبعض المعاجم تجعل العلاقة بين هذين المعنيين المختلفين علاقة جناس صوتيّ (homophones)، وبعضها الآخر يعتبرها قائمة على المشترك.

ج(٧): فعل [أطلق]+ فاعل [هو (+عاقل)] + مفعول [الناقة (- عاقل)] + مفعول فيه [من عقالها (+جماد)]

ليس المقصود بهذه الشكلنة الخروج بقواعد بنيوية متينة، لمحاصرة المشترك تركيبيا، ولكنها محاولة لتمثيل هذه الظاهرة تركيبيا وعدم التوقف عند النظر إليها بوصفها مجرد ظاهرة معجمية محضة.

٤ـ المقاربة اللسانية: جورج كلايبار نموذجا

يعتبر جورج كلايبار [13] أنّ ظاهرة المشترك قارّة في اللسانيات، فهي ليست بالعرَضية وبالهامشية، بل هي عنصر بنائيّ "حتى في علم دلالة اللغات الطبيعية" ولقد اعتبر بعض اللسانيين "المشتركَ حدثا لسانيا أساسيا وسمة شديدة الانتشار في كلّ اللغات الطبيعية "[14]. وتفترض هذه النقطة اتفاقا ما حول تعريف الظاهرة وهو ما يمثّل المكتسب الثاني الذي يمكن تسجيله . ومن هذا المنطلق، نرى أنّ إجماعا تامّا يكاد ينعقد حول وجود:

١ـ تعدد في المعنى متصل بشكل واحد.

٢ـ معانٍ لا تبدو منفصلةً تماما، لكن توحّدها هذه الصلة أو تلك.

فثمّة مشترك عندما "توجد معانٍ مختلفة لكلمة واحدة، ولكنها معانٍ تُدرك بوصفها متّصلة فيما بينها على نحو من الأنحاء "[15] غير أنّ الاتفاق يتوقف عند هذه الحدود . فما إن نتجاوزْ إطارَ هذا التعريف الحدْسيّ للمشترك، وما إنْ نحاولْ توضيحَ ما نقصد به من **المعنى** ومن المعاني **المختلفة** وخاصّة ما هي صلات القرابة التي تبرّر تشابهها والتي تسمح بالتمييز بين المشترك والجناس (الذي لا ينطبق عليه الشرط الأوّل)، حتى تختلط الأمور وتفسد، كما لاحظ ذلك فكتوري وفوكس، في مقدّمة كتابهما، إذ قالا: " إنّ المشترك، مثله في ذلك مثل كثير من المصطلحات اللسانية، مفهوم يسهل إدراكه إدراكا حدْسيّا، ولكنه يبدو عصيّا على الحدّ الجامع"[16].

ويبدو المشترك، حسب كلايبار، المشكل المركزيّ في تدبُّر المعنى، وهو شكلٌ لا يمكن اجتنابه[17]. إنّ السؤال : لماذا نسمّي **سا** الوحدة المخصوصة لـ **س**؟ سؤال يكشف بوضوح الاختلاف بين المستويين. إذا كان **سا** وحدة معجمية مثل **طائر** فإنّ الإجابة (أ) هي الملائمة:

(أ) **س** هو **سا** لأنّه يكتسب سمات (سواء كانت ضرورية أو كافية، أو طرازية بارزة، خصوصية، نمطية، لا يهمّ وضعها الصحيح) تعود إلى مقولة **سا** أو إلى مفهومه (قارنْ **س** هو طائر لأنّه يحظى بالخصائص التي تمتّع بها مقولة **طائر** أو مفهوم **طائر:** أي هو حيوان، له ريش، ذو منقار، إلخ.).

وإذا كان **سا** لفظا متعدّد المعاني مثل **عِجْل** الذي يوافق متصوّر عجل- حيوان وعجل – لحم وعجل – جِلْد، من حيث مقولة المعنى، فإنّ الجواب (ب) هو الملائم:

(ب) **س** هو **سا** (أو ينتمي إلى **سا**) لأنّه يحظى بسمات تتصل بمقولة **ص** أو بمفهوم ص، و**ص** هي إحدى مقولات (أو معاني) **سا.** إذا كانت وحدة مخصوصة مثل **عِجْل**، مُصنَّفة، فليس لأنّ لها سمات عامّة لمقولة المعنى إجمالا: ليس لها سمات **عِجْل** – **عِجْل** الذي لا يوجد إلا بوصفه مقولة مرجعية، بما أنّ هذه المقولة اللسانية التي هي عِجْل، تجمع من حيث المبدأ بين معاني أو مفاهيم دون تكوين واحد منها. إذا كانت **س** مُرتَّبةً بوصفها **عِجْلا**، فليس لأنّها تمثّل سمات **ص** (**عِجْل** - حيوان)، **ص** (**عِجْل** - لحْم) أو حتى **ص** (**عِجْل** - جِلْد)[18].

٢/ إنّه بإظهارنا وجود صنف من الكيانات الفردية تشتمل هي بدورها على حالات وُرود بالنسبة إلى كلمة مثل كلمة **كتاب**، بإمكاننا أن نتجاوز بيُسر مشاكل أخرى طرحها كايزر، ولكن من منظور أحاديّ الدلالة، نحو مشاكل إحالة الضمير (لا تشترِ **هذا الكتابَ**، فهو يملكه) والإحالة الظاهرة وغير المباشرة واتّساع القسم، إلخ . النقطة الأساسية التي نحتفظ بها هي البنية المفهومية لكلمة **كتاب** في حدّ ذاتها، أي معناها، هي التي توفّر لنا هذا الضربَ من الكيانات.

خاتمة x

إنّ التمهيد لدراسة المشترك في اللسانيات الحديثة يمرّ عبر تبيّن طرائق دراسته التقليدية لمعرفة درجة التحديث الذي اكتسبه هذا المبحث في العلوم اللغوية المعاصرة. ولا يمكن المقارنة بين النظرة الكلاسيكية لهذا المبحث المعجميّ في الأصل والنظرة الحديثة التي تجعله في صلب الدلالة وتجعل من الاهتمام به مطلبا راهنيا حيث تتحدث الدراسات الحديثة عن "إمبراطورية المعنى" عند حديثها عن المشترك، وفي ذلك كناية عن مدى توسع هذا الظاهرة لا فقط في الاستعمال بل وأيضا في الدراسة والاهتمام الأكاديميّ.

الهوامش:

---

[1] صابر الحباشة، باحث أكاديمي في اللسانيات من تونس يدرّس بالجامعة العربية المفتوحة في المنامة- مملكة البحرين.

[2] سورة التوبة، الآية 128.

[3] وقد وردت أحاديث ساقها ابن كثير والقرطبيّ في تفسيريهما (تمثيلا) تبرز طهارة محتد النبيّ وشرفه، نحو قوله صلى الله عليه وسلّم:"خرجتُ من نكاح و لم أخرج من سفاح" ويذهب بعض الرواة إلى أن نسبَ الرسولِ طاهرٌ إلى أبي البشر آدم.

[4] هذا المثال من لسان العرب لابن منظور، مادة (ط / ل / ق).

---

[1] J.Picoche, structures sémantique du lexique français, Fernand Nathan, 1986, p4.

[2] Op. cit, loc. Cit.

[3] Jean et Claude Dubois, 1971, p75.

[4] Gustave Guillaume, 1956-57, p161.

[5] موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، بيروت- باريس، منشورات عويدات، ط٢، ٢٠٠١، مج٢، ص٩٩٦.

[٢] جميل صليبا، المعجم الفلسفيّ، بيروت، دار الكتاب اللبنانيّ، ١٩٨٢، ج٢، ص٣٧٦. وقد عاد إللى "معيار العلم" لأبي حامد الغزالي، ص – ص ٤٦-٤٧. ثم أورد صيبا بعد ذلك تعريف الشريف الجرجاني الذي سيرد أدناه ، كما أشار إلى تعريف لالاند المشار إليه أعلاه، أيضا.

[7] Encyclopaedia Universalis, article: Polysémie, par Michel Braudeau.

[8] Encyclopaedia Universalis, article : Ambiguïté linguistique, par Pierre Le Goffic.

[9] Encyclopaedia Universalis, article :Modèle, par Raymond Boudon et al.

[10] Encyclopaedia Universalis, article : Mythe, l`interprétation philosophique, par Paul Ricoeur.

[11] Guillaume Jaquet, polysémie verbale et calcul du sens, Lattice, CNRS, 2005, P22.

[12] Guillaume Jaquet, polysémie verbale et calcul du sens, Lattice, CNRS, 2005, P2٣.

[13] G.Kleiber, Problèmes de sémantique : la polysémie en questions, Presses Universitaires du Septentrion,1999, p55.

[14] I.Mel`Cuk, A.Clas & A.Polguère, introduction à la lexicologie explicative et combinatoire, Louvain-la-Neuve, Duculot, 1995, p-p156-157.

[15] P.Cadiot & B.Habert, aux sources de la polysémie nominale, langue française, 113,1997, p3.

[16] Victorri B., Fuchs C.,1996, La polysémie, construction dynamique du sens, Paris, Hermès, p11.

[17] G.Kleiber, Problèmes de sémantique : la polysémie en questions, Presses Universitaires du Septentrion,1999, p5٧.

[18] 0p. cit, p-p62-63.

[19] 0p. cit, p٧٢.

[20] 0p. cit, p٧٥.

[21] 0p. cit, p٧٤.

[22] ألفة يوسف، تعدّد المعنى في القرآن، تونس، دار سحر، ٢٠٠٣، ص ٢٣.

[23] المرجع نفسه، هامش ص٢٠.

[24] D.Kayser, 1987, Une sémantique qui n`a pas de sens, Langages, n87, p40.

* المصادر والمراجع:

١ ـ العربية والمعرّبة:

- القرآن الكريم
- ابن جنّي، الخصائص، تح محمد عليّ النجار، بيروت، دار الكتاب العربيّ، [د.ت].
- ابن ضيف الله الطلحي (ردة الله بن ردة): دلالة السياق، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية، مكة المكرمة، ١٤٢٤هـ.
- ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم)(ت٢٧٦): تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، القاهرة، مكتبة دار التراث، ط٢، ١٩٧٣.
- ابن قيّم الجوزية (شمس الدين محمد بن أبي بكر): الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن، بيروت، دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٧.
- ابن منظور (ت٧١١هـ): لسان العرب، لبنان، ١٩٨٨.
- أنيس (إبراهيم): دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٦، ١٩٩١.
- التهانويّ (محمد علي:) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم وإشراف ومراجعة د . رفيق العجم، مكتبة لبنان ناشرون،ط١، ١٩٩٦.
- حيدر (حازم سعيد): علوم القرآن بين البرهان والإتقان: دراسة مقارنة، المدينة المنورة، ١٤٢٠هـ.
- الزبيدي (أبو العباس أحمد بن عبد اللطيف)(ت٨١٣هـ): مختصر صحيح البخاري : التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح، بيروت، دار الفكر، ٢٠٠٠.
- الزبيدي، (أبو الفيض مرتضى)(١٢٠٥هـ): تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مصطفى حجازي وغيره، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٣٥مج، ١٩٨٤.
- الزركشي (بدر الدين)(ت٧٩٤هـ): البرهان في علوم القرآن، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ٤ مج، ١٩٨٨.
- الزناد (الأزهر): مراتب الاتساع في الدلالة المعجمية : المشترك في العربية: مادة "عين" نموذجا، مجلة المعجمية، ع٩و١٠، ١٩٩٣/١٩٩٤، ص-ص١٦٩-١٩٨.
- السيوطي (جلال الدين)(ت٩١١هـ): المزهر في علوم اللغة وأنواعها، دار الجيل، (د.ت).
- الشيخ (عبد الواحد حسن): العلاقات الدلالية والتراث البلاغي العربي (دراسة تطبيقية)، القاهرة/الإسكندرية، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، ط١، ١٩٩٩.
- صليبا (جميل): المعجم الفلسفيّ، بيروت، دار الكتاب اللبنانيّ،١٩٨٢.
- صولة (عبد الله): المَقُولَة في نظرية الطراز الأصلية، حوليات الجامعة التونسية، ع٤٦، ٢٠٠٢، ص-ص٣٦٩-٣٨٧.
- غاليم (محمد): التوليد الدلالي في البلاغة والمعجم، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ط١، ١٩٨٧.
- الفارسي، الصاحبيّ في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تح مصطفى الشويمي، بيروت، مؤسسة بدران، ١٩٦٣.

- I.Mel`Cuk, A.Clas & A.Polguère,1995, introduction à la lexicologie explicative et combinatoire, Louvain-la-Neuve, Duculot.

-Picoche, J. (1986), structures sémantique du lexique français, Fernand Nathan.

- Victorri, B. & Fuchs, C. ,1996, La polysémie : une construction dynamique du sens, Paris, Hermès.